

نسبة الروايات

بدأ الشك فى نسبة الروايات قبل ظهور طبعتها الثانية فى سنة ١٦٣٢م لأن حصر هذه الروايات فى طبعتها الأولى قد فتح الباب لمراجعة العارفين بها، فاستدركوا ما سقط منها وما أضيف إليها من غيرها، على حسب علمهم بمصادرها، وربما كان منهم من عرف اسم الرواية ولم يشهد تمثيلها، فالتبس عليه الأمر بين الروايات التى ألفها شكسبير بهذا الاسم، وبين الروايات التى سبقتها بأقلام المجهولين أو لذكورين.

ومن أقدم ما سجل من هذه الشكوك كلمة كتبها إوارد رافنسكروفت Ravenscroft سنة (١٦٤٠ - ١٦٩٧م) فى مقدمة رواية تيتوس أندرونيكس - وهو اسم رواية تنسب إلى شكسبير - فقال: «إنه ليبدو لى أن اختلاس أعمال الموتى سرقة أكبر إثماً من سرقة أموالهم، ولا أود أن أرمى بجريمة من هذا القبيل، فلا مناص لى من أن أنبئ القارئ بأن هناك رواية فى مجموعة مستر شكسبير باسم تيتوس أندرونيكس نقلت عنها جزءاً من روايتى، وقد أنبأنى بعض المطلعين على تاريخ المسرح أنها ليست له ولكنها وضعت بقلم مؤلف آخر لتمثيلها، ولم يزد عليها شكسبير غير بعض التنقيحات فى تصوير الشخصيات الهامة، وأرانى جانحاً إلى

قبول هذا الخبر لأن الرواية أقل أعماله صحة وهضما، وكأنها كوم من النفاية وليست بنية منظمة..».

على أن هذا الشك القديم يردده بعد نحو ثلاثة قرون نخبة من النقدة الكفاة فى دراسة شكسبير ومنهم الشاعر المتوج فى عصره جون ماسفيلد Masfeld وهو على شهرته فى قرص الشعر أديب عليم بتاريخ الأدب، له كتاب موجز ألفه عن شكسبير فقال فيه عن هذه الرواية: «ولا يساورنا الشك فى أن شكسبير كتب قليلا من هذه الرواية، لا ندرى أين ومتى؟ غير أن الشاعر لا يقترب الخطيئة فى حق فنه ما لم تقسره الضرورة، وما كان شكسبير ليزاول هذا العمل حبا وكرامة عن طيب خاطر... ويجوز أن الرواية وصلت إليه بوصاة من مدير مسرحه وهو يقول له كلمات بهذا المعنى: لدينا قطعة رديئة - جد رديئة - لولا أنها قد تنجح وأود أن أعرضها وأبدأ بتوزيع أدوارها توا. ألا تستطيع أن تعالجها؟ أرجو أن تجتهد فيها اجتهادك، ولو أنشأت لها كلمات هنا وفقرات هناك عند الحاجة، ومهما يكن من أمر فأرجو أن ألقاها منك يوم الاثنين».

ويحيط الشك بمسرحيات أخرى فى المجموعة غير هذه المسرحية، وأشهرها وأكثرها حظا من الشكوك رواية بركلييس وروايات هنرى السادس ورواية هنرى الثامن ومناظر من مكبث والملك لير وسمبلين، ويظن فريق من النقاد أن فلتشر Fletcher

كتب أكثر هنرى الثامن، وأن مارلو Marlowe كتب أكثر هنرى السادس، ويقول أديب مفكر فياض الذهن - هو الشاعر الفيلسوف كولردج - إن فاتحة الروايات على الأقل ليست من قلم شكسبير، ويتناثر القول بمثل هذا عن مناظر من تيمون الأثيني وترويض السليطة والعبرة بالخواتيم وما عداها، وحجتهم فى فروضهم أن مواضع الشك كثيرة الخلط والخلل، وأنها ليست على سواء فى رسم الشخصوى، ولا فى تقسيم الفصول، ولا فى سوق الحوادث، أو الشعور بلب الحادث الفاجع والحادث الذى لا يعدو أن يكون واقعة أليمة لا معنى فيها للفجيرة، وأن بعض المناظر فى الروايات - كمنظر جان دارك فى ضراعتها ودفاعها - يهدر القيم الإنسانية التى لم يهدرها شكسبير، وإن كان لا يستهين بما فى طوايا الناس من الشر واللؤم والفساد.

وعلى وجهة الملاحظات التى توجب هذه الفروض عند نخبة من جلة النقاد، يظل أناس من حذاق القراء مترددين فى تسليم هذه الشكوك يعللون الملاحظات أو المفارقات بالعلل الطبيعية التى تعرض للعبقرية فى أطوار نموها بين عهد البواكير وعهد النضج والاستواء، ولا يصعب عليهم أن ينسبوا تلك المفارقات إلى قلم واحد فى فترة واحدة، لأن العبقرية لم تسلم قط من تفاوت النتاج فى العمل الواحد، ولا من الإسفاف الذى يقابل الارتفاع النادر ويلازمه فى آثار العباقر من أرفع الطبقات.

ومن أذكى هؤلاء القراء الحذاق وليام بليس Bliss صاحب كتاب «شكسبير الحق» أو الرد على الشراح، وهو يقول فى الفصل الأول منه إن الشراح لم يتفقوا على سطر يجوز أن ينسب إلى شكسبير ولا على سطر لا يجوز أن ينسب إليه، وإن الشاعر لا يؤلف الجيد من كلامه دون الردىء، وإن ردىء الروايات المشكوك فيها أشبه بردىء شكسبير منه بردىء مارلو، وإن عيوب الموضوع أحياناً تسوق الشاعر إلى عيوب لا فكاك منها ولا حيلة له فيها.

وصفوة آراء هذا القارئ الحاذق فى كتاب زاد على ثلاثمائة صفحة أن شكسبير كتب كل قطعة تبناها، وأنه لا ينفرد بما لوحظ عليه من التفاوت فى أدوار نموه ولا فى دور واحد من حياته، بل يكاد كل مؤلف عظيم أن يخرج منه ثلاثة مؤلفين أو أربعة إذا فصلنا بين أجود ما فيه وأردأ ما فيه، وبين وحى التحليق والإلهام من عمله ووحى الهبوط والتكلف المكدر.

إلا أن هذه الشكوك التى أجملناها فيما تقدم تنتهى عند الشك فى نسبة هذه الرواية أو تلك، ونسبة هذا المنظر أو ذاك، وكلها من ملاحظات طائفة من النقاد تدين «أولاً» بوجود عمل لا شك فيه صحيح النسبة إلى شكسبير، وتدين «ثانياً» بعظمة الشاعر وتنزيهه عن العيوب التى يكبرون تلك العظمة أن تنحدر إليها وتنزلق فيها، ويفرقون بين العمل الفج أو المختل الصادر من طبيعة الشاعر والعمل

الذى ينافر تلك الطبيعة ولا يلائمها، ومحصول نقدهم أن عبقرية شكسبير حقيقية لا شك فيها، وأنها أكبر وأرفع من الروايات التى ينكرون نسبتها إليه.

ولكن ضرباً من الشك غير هذا نجم فى القرن التاسع عشر، وقام على أساس مناقض لأساس كل شك من تلك الشكوك التى تنتهى إلى إنكار بعض المناظر أو بعض الروايات.

وأساس هذا الشك أن الرجل المعروف باسم شكسبير فى التاريخ الصحيح أقل من أن تنسب إليه رواية من روايات المجموعة بجيدها وردئها على السواء، وأن كل رواية من هذه الروايات أتم وأعلى من أن ينهض بها ذهن شكسبير، بما صح فى التاريخ من دلائل ثقافته ودرايته ومقدمات استعداده.

وتعزى الحملة على شكسبير حديثاً إلى بواعث بعيدة من تاريخ الأدب وموازين الثقافة:

تعزى إلى نزعة اجتماعية أو سياسية بلغت غايتها من العنف واللجاجة خلال الفترة التى حامت فيها الشكوك حول أصالة الأعمال المنسوبة إلى الشاعر، وهى فترة العراك بين الطبقات على حقوق الحكم وحقوق الانتخاب، وما ينطوى فيها من نزاع على المزايا والملكات التى يقال إنها تولد مع الإنسان، أو إنها قد تكسب ولكن بالتعليم والمرانة الطويلة وجريان العادة فى العرف عقباً بعد

عقب وذرية بعد ذرية. وقد كانت المعركة فى وجه من وجوها المائلة للأبصار والبصائر معركة شكسبير دون غيره أو قبل غيره. لأنه علم العبقريّة الأعلى بين القوم، فإذا جاز أن ينبت فى غير بيئة الحكم والسيادة فليست مزايا الفكر وملكات الفهم حكرًا للعلية ولا لطبقات الحكم والسيادة، وإذا سقط هذا العلم من أيدي الثائرين المطالبين بالحقوق فليس لهم علم سواه يغنى عنه.

ولم يرد هذا الخاطر على الأفكار فى العصر الحديث بغير مسوغ يوحيه، بعد تجدد المعركة فى القرن العشرين على نطاق أوسع من نطاقها فى القرن الثامن عشر، بل كانت له مسوغات كثيرة من موافقات الأحوال ومن مجرى الحوادث ومن مضامين الحملة على شكسبير، ومنها أن المتشككين فى أصلته كانوا ينتهون دائمًا إلى نسبة أعماله إلى رجل من العلية يحمل لقبًا كبيرًا من ألقاب النبلاء، وأنهم عادوا بعد استضعاف القرائن التى تعزز نسبتها إلى لورد باكون؛ فنسبوا إلى واحد بعد واحد من طبقة النبلاء.

ومنها أن أنصار شكسبير فى أمم القارة الأوربية كانوا أوفر عددًا وأرفع صوتًا وأشد حماسة له من أنصاره فى الأمة الإنجليزية، وكان الانتصار لشكسبير يساوق الانتصار للحقوق الاجتماعية أو السياسية التى احتدمت معاركها فى أمة من الأوربيين.

وأية الآيات فى هذه العبقريّة النادرة أنها كانت من سعة الأفق بحيث تنهض منها الحجة لكل طالب حجة فى القضايا المتناقضة،

ولا سيما قضايا التنافس أو التفاخر بين الطبقات، وقد بلغ من اتساع هذا الأفق أن يزعم أناس أن شكسبير لم تكن له نزعة خاصة في مسائل الاجتماع ونزاع الطبقات، وأن يزعم غيرهم أنه صاحب نزعة «أرستقراطية» في النظر إلى أحوال المجتمع وأحوال الحياة على عمومها، وأن يزعم غير هؤلاء وهؤلاء أنه يأبى هذه النزعة وينزع على نقيضها إلى الثورة واتهام نوى السلطان، وكل هؤلاء الزاعمين ممن يسمع لهم رأى في هذه الأمور، ومن يستندون في رأيهم إلى وجه جدير بالتأمل والاتفات.

فالأستاذان الفرنسيان لجوى وكازميان Legouis and Cazamian يقرران في تاريخهما للآداب الإنجليزية أن شكسبير لم تكن له فلسفة اجتماعية يدين بها، ولم تعرف من كتبه نظرة خاصة إلى قضايا الاجتماع.

وجورج براند Brandes الناقد الدنماركى الذى كان ميزانه فى النقد - ولا سيما نقد شكسبير - أشهر الموازين فى القارة الأوروبية إلى ما بعد وفاته فى سنة ١٩٢٧م، يعتقد أن شكسبير ينزع منزع العلية فى آرائه الاجتماعية، ويسىء الظن بروح الجماعة، ويعرض الغوغاء فى صورة مزرية كلما صور حركة من حركاتهم فى مواقف الشغب والهياج.

والأستاذ لورنز إكهورف النرويجى Lorentz Eckhorf يذهب إلى الطرف الآخر فيقول إن الشاعر كان لسان الطبقة الثالثة

ويؤلف فى تفصيل ذلك كتاباً سماه شكسبير مدره الطبقة الثالثة :
Shakespeare. Spokesman Of the third Estate وبين فيه
أن الشاعر لم ينظر قط فى رواياته نظرة الرضا بالسلطان القائم ،
وأنه فى حكم الثائر الدائم على كل حالة ينكرها الثائرون ويعملون
لتغييرها ، ولا ينفى الناقد النرويجى تصوير الشاعر لهياج الغوغاء
فى صورته المزرية ، ولكنه يعود إلى الأفراد من الدهماء حيثما
صورهم شكسبير فى رواياته ، فيستخلص منها دلائل العطف -
بل العطف الكبير - على كل فرد منهم ، ويذكر على سبيل المثال
شخصية آدم فى رواية «كما تهوى» ، وشخصية الخادم فى رواية
«تيمون الأثينى» ، وهو الذى ثبت وحده على سجية الوفاء والأمانة
بين أهل المدينة.

فلو بحثت معركة الطبقات عن علم تدور عليه لم تكدر تعثر
فى البلاد الإنجليزية بعلم أوفق لها من اسم هذا الشاعر فى سمو
مكانته واتساع أفقه وإحاطة جوانبه بأطراف المعركة من أقصاها فى
اليمن إلى أقصاها فى اليسار.

فلا جرم يخطر على الأفكار المشغولة بالصراع بين الطبقات
فى العصر الحديث أن الحملة على شكسبير قد انبعثت كلها من
غرضها الاجتماعى - أو السياسى - ولم يكن لها باعث من بواعث
النقد الأدبى وموازن الشعر والثقافة.

ولا سبيل إلى الفصل الحاسم بين الغرضين فى الواقع ، فإن المعركة الاجتماعية - ولا ريب - قد كان لها أثرها فى توجيه الأنظار وإثارة الأفكار التى لا تثيرها معارك الأدب الخالص فى جميع الأوقات ولا تجتذبها إليها بغير حافز من حماسة الجدل فى مسائل الاجتماع والسياسة ، أما أن تكون الحملة بحذافيرها من توليد الدعوة السياسية فهو تخمين لا سند له من الواقع ، بل ينقضه الواقع عند استقصاء تاريخ الحملة والرجوع بها إلى بداءتها فى القرن الثامن عشر ، قبل احتدام النزاع على حقوق الحكم وحقوق الانتخاب .

وإنما سبق إلى الخواطر أن الحملة وليدة الدعوة السياسية لشيوع الظن بأنها صدرت أول مرة من كتاب رجل مشغول برياضة الملاحة ، وأن الكتاب الذى وردت فيه موضوع عن قصة هذه الرياضة *Romance of Yachting* فى سنة ١٨٤٨م التى تعتبر من سنوات الحرج فى تاريخ صراع الطبقات بالقارتين الأوروبية والأمريكية ، ولم ينشر هذا الكتاب فى إنجلترا ، بل نشر فى الولايات المتحدة وهى مشغولة بصراع الأجناس والعصبيات مع صراع الطبقات ، وكان مؤلفه من رجال السلك السياسى يسمى جوزيف هارت Hart يكتب فى هذه المباحث وما إليها كتابة الهواة .

إلا أن هذا المؤلف لم يكن أول من أثار الشك فى أصالة أعمال شكسبير ، بل قام هذا الشك قبله بنحو سنة فى دراسات رجل من

رجال الدين بعيد عن شواغل السياسة يكاد ينقطع لدراسة المنطق والحكمة وما يتصل بهما من علوم الربوبية أو اللاهوت، وكان هذا القس - واسمه جيمس ويلموت Wilmot - يعكف على دراسة الفلسفة التجريبية في كتب فرنسيس باكون، ويستغرب التشابه بين عباراته وعبارات شكسبير، ويسجل استغرابه هذا عرضاً في تعليقاته ورسائله بين ما كان يسجله من اللمع والآراء، ولم يذهب في التعليقات والرسائل مذهب القول الصريح بنسبة العبارات المتشابهة إلى باكون دون شكسبير، ولكنه أثار الشك في نفوس محادثيه والمطلعين على رسائله، وذاعت عنه هذه المقارنات قبل أن تصدر في كتاب مطبوع ببضع سنوات.

وكان من أثر المحادثات في بيئة القس ويلموت أن صديقه الأستاذ جيمس كورتون كويل Cowell أحد المحاضرين في مواسم شكسبير عدل عن إلقاء محاضرة أعتها لزيارة من زيارات ستراتفورد، لأنه ارتاب في إبداع شاعرها لما نوه به في المحاضرة من أسرار البلاغة وآيات الإبداع، وتوفي القس ويلموت سنة ١٨٠٧م ولم ينشر شيئاً باسمه عن أصالة أعمال شكسبير، وإنما كثر الكلام في المشابهة بين عبارات شكسبير وعبارات باكون بعد ظهور الرسائل التي طبعتها إحدى قريباته في حياته، ويظن أن الكتب التي نشرت في هذا المعنى لمؤلفين مجهولين مكتوبة بقلم القس نفسه ولكنه أخفى اسمه ليربأ

بمكانته الدينية عن لجاج الخصومات فى موضوع كهذا الموضوع المثير،
ومن هذه الكتب كتاب عنوانه سيرة الفهم السليم ومغامراته The life
and adventures of common sense and قيل إنه بقلم طبيب - غير
معروف - يسمى هربرت لورنس Lawrence طبع قبل وفاة القس
ويلموت بنحو أربعين سنة (١٨٦٩م) وتلاه كتاب الخنزير العليم
Learned pig الذى تخيل مؤلفه أن الحكمة روح تتجسد عصرًا بعد
عصر من أقدم الأزمنة، وأنها عادت فى ذلك العصر لكشف الحقائق
الخفية، ومنها حقيقة شكسبير، وقد طبع هذا الكتاب سنة ١٧٨٦م
قبل وفاة القس ويلموت باثنتين وعشرين سنة، ومضت بعده فترة
طويلة تلاحقت بعدها الكتب فى نفي أصالة شكسبير، ثم تعددت
الأسماء التى تنتسب إليها الروايات والقصائد المنشورة فى مجموعته،
وأصبح باكون أحد ثلاثة من النبلاء يدعى المنكرون لشكسبير أن
أصحابها ألفوا له تلك الروايات والقصائد، والنبيلان الآخرا هما لورد
روتلاند Rutland ولورد أكسفورد oxford وقد سماه لوني Looney
فى كتاب ظهر سنة ١٩٢١م، ثم زكته الأستاذة أمفليت Amphlett فى
كتابها: «من هو شكسبير؟» who was Shakespeare?

وكان اسم لورد أكسفورد آخر الأسماء المختارة من طبقات
النبلاء فى عصر شكسبير لكتابة المؤلفات المنسوبة إليه، ثم بقيت

الدعوى وتغيير الاتجاه فى اختيار الأسماء، فظهر فى سنة ١٩٥٦م كتاب عنوانه «الرجل الذى كان شكسبير» the man who was Shakespeare بقلم كلفن هوفمان Calvin Hoffman وهو ينقل هذه الدعوى من سلك النبلاء إلى سلك الأدباء، ويرشح الشاعر مارلو Marloew لكتابة الروايات والقصائد ولكنه يقول إن «مارلو» كتبها متخفياً؛ لأنه كان مطاردًا على خطر من الاعتقال والموت، فكتب اسمه على قبر بحار يعرفه وظل متخفياً فى زاوية مجهولة حتى مات، فانقطع شكسبير عن التأليف.

وربما بلغت بعض الظنون مبلغ اللعب بالألغاز فى النظريات والتخمينات المتأخرة من ابتكارات المحدثين، وأشبهها بلعب الألغاز تلك النظرية التى يقول صاحبها بنسبة تواليف شكسبير إلى حلقة من النبلاء وعلماء اللغة يشترك فيها اللوردات أكسفورد ودربرى وروتلاند وباكون وآخرون، وأقوى ما فى أظانين المؤلف من حجة على زعمه أن أسلاف هؤلاء النبلاء ممجدون - فوق اللازم - فى بعض الروايات ... وما من حجة من هذا القبيل تثبت لمحة عين أمام اعتراض واحد يرد عليها، وهو استحالة كتمان السر الذى يشترك فيه أولئك النبلاء والأدباء ومن حولهم أعوانهم من الحاشية ومديرى المسارح والممثلين^(١).

* * *

(١) حلقة شكسبير السحرية تأليف إيفانز A. J. Evans Shakespeare's Magic by

ومن مساوئ هذه الدعاوى أنها تجتذب إليها المتهوسين وعشاق الأفانين، كما تجذب إليها المولعين بفض الأغلاق وحل الرموز والألغاز، فينحرف البحث فيها عن سوائه ويشترك فيه طلاب الحقائق وطلاب الحيل وضروب المهارة والتوفيق بين الغرائب والأقاول.

وهكذا حدث في موضوع المباحث التي تدور على أصالة شكسبير، فكان ممن تصدى لها من أفضى به الهوس بهذه الدعوى إلى مستشفى المجانين، ومنهم من كان يكتب حكايات الشرطة واللصوص وحكايات التزييف والتضليل على التخصيص، ومنهم من كان يشتغل بالجاسوسية الدولية أو يتتبع أخبار هذه الجاسوسية، وقل في أسانيدهم جميعاً ما يستحق التوقف عنده وإطالة النظر فيه، وليس من السهل تلخيص هذه الأسانيد في بضع صفحات، ولكنها قد تلخص في ثلاثة أبواب من الأسانيد يوزن كل منها بميزان قريب يبين حظه من الرجحان.

فأول أبواب هذه الأسانيد وأضعفها، باب الرموز والحروف المدسوسة بين السطور، ويصعب نقلها من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية لارتباط الهجاء بالمعنى في الرموز التي يستدلون بها على الأسماء والكنيات، وأيسر الأمثلة فهما اعتمادهم على المشابهة بين كلمة باكون Bacon اسم الفيلسوف المعروف وكلمة باكون بمعنى لحم الخنزير، فإنهم يحسبون تكرار الكلمة مقصوداً للإيحاء باسم

المؤلف المستور ، ولكن هذا التكرار يماثله تكرر بمقداره أو أكثر منه في الكلمات المشتركة بين أسماء الأشياء وأسماء الرجال والنساء ، وقد لهجوا بكلمة شاذة ملفقة^(١) جاءت في رواية الحب الضائع تهكمًا بالمتشدين المولعين بالكلمات الطويلة ، فعالجوا حروفها الكثيرة ضما وتفريقًا ليستخرجوا منها اسم المؤلف المفروض ، وأيا كان اسمه فمن المحقق أن اشتراك الحروف لا يصدق في وقت واحد في الإيحاء باسم باكون ، واسم روتلاند ، واسم أكسفورد ، واسم مارلو ، ومن عسى أن يذكر من أسماء النبلاء والأدباء .

* * *

ولسنا نعلم أن أحداً من علماء اللغة وخبراء الأدب أقام وزناً لقرينة من قرائن الجفر والرموز ، وإنما يلهج بهذه القرائن جمهرة المتطلعين وطلاب الأفانين ، أما علماء اللغة وخبراء الأدب والنقد فوسيلة التحقيق عندهم أن يقابلوا بين الأساليب والموضوعات ، وهي أدنى إلى الجد وسداد النظر في هذه الدراسات ، وأكثرهم يرى بعد المقارنات الطويلة أن تشابه العبارات لا يثبت شيئاً خاصاً بشكسبير أو بأديب من أدباء عصره ؛ لأنه قد يثبت المستحيل وهو أن يكون باكون مؤلفاً لكتب العصر كله من منظوم ومنثور ، إذ كانت العبارات المتشابهة غير قليلة بين أدباء العصر على الإجمال ، وعندهم أن

(١) الكلمة هي : Horrificabitudinitatibus .

لوازم العصر قد تشيع على تعبيرات الأقلام كما تشيع فى أحاديث الألسنة فى كل حقبة على نهجها ووتيرتها، وبخاصة فى عصور التطريق والتعبيد على مثال العصر الذى كتب فيه شكسبير وباكون، لأنه كان بمثابة مفترق الطريق بين الكتابة باللاتينية والإغريقية والإقبال على الكتابة باللغة الإنجليزية الحديثة، وفى أمثال هذه العصور تتولد الصيغ والقوالب ويكثر التشابه فى الأنماط والعبارات، ويكاد الكتاب جميعاً أن يصدروا عن نمط واحد وسليقة واحدة، لأنهم لا يبلغون من كثرة العدد أن تتسع بينهم شقة الخلاف، ولا يبلغون من تنوع الأساليب أن تكون فيهم مدرسة مستقلة لكل أسلوب.

ومما يذكر فى جانب شكسبير أنه كان ينقل الخطب والأحاديث بنصوصها من تراجم بلوتارك كما نقلت إلى اللغة الإنجليزية، وأنه كان يستطيع ذلك دون أن يحتاج إلى أقلام باكون أو روتلاند أو أكسفورد أو مارلو أو غيرهم من علماء عصره، لأنهم أحرى أن يرجعوا إلى المصادر الأولى إذا احتاجوا إلى التأليف.

على أن اتفاق النقاد على تشابه الألفاظ وتناقل العبارات بين كتاب العصر - يقابله اتفاق يكاد أن ينعقد انعقاد الإجماع - على تباعد «الروح» بين كتابة باكون وكتابة شكسبير، وتباعد «الروح» بين شكسبير وسائر معاصريه، وليس هذا الفارق الواضح بالفارق الضعيف الذى يجوز إهماله فى هذا المقام، ولكنه على وضوحه

فارق عسير الثبوت بالبرهان المتفق عليه، كما يعسر ثبوت الفارق بين ملامح الوجهين مع يقين الناظر بوجود هذا الفارق أمام عينيه، وقصارى هذه الفوارق الجلية الخفية، أن تقوم فى الروع وتحول دون الجزم بوحدة التأليف.

وندع هنا أسئلة السائلين عن العلة التى تدعو باكون أو روتلاندر أو أكسفورد إلى تأليف كل هذه الروايات من وراء ستار، وعن العلة التى تفسر لنا خفاء الأمر فى رواية بعد رواية وفى بيئة المسرح وبيئة العلية وبيئة اللغط الاجتماعى التى تحيط بكل قصر من قصور النبلاء وكل أديب من أعلام الأدباء، وكل ممثل ملحوظ المكانة بين الزملاء والنظارة ورواد الفن من خلف الستار أو أمام الستار، وحسبنا أن نقول إن كل سؤال من هذه الأسئلة يجاب عنه بأقوال متضاربة ليس منها قول واحد يقطع الجدل ويوجب الإقناع، ومن أمثلتها أن صناعة المسرح كانت يومئذ من الصناعات المردولة فى عرف المتطهرين، وأن المؤلفين النبلاء كانوا يتخذون الرواية المسرحية أداة لإبداء الآراء التى يكتُمونها فى شؤون السياسة، وأن هواية المسرح لزمّت بعض النبلاء من أيام تلمذتهم فى الجامعات، لأنهم درسوا فيها ومثلوا بين جدرانها روايات اليونان والرومان، وعاشوا بعد ذلك ينظمون الشعر، ويعرضون المواقف المسرحية فى سهرات القصور، وكل هذه الأجوبة من مطارح الظن تقال ويبقى بعدها متسع للسؤال.

إلا أن المقارنة بين الأساليب قد أسفرت عن نتيجة لا يسكت عنها فى صدد الكلام على تحقيق أصالة الشاعر بهذه الوسيلة، وربما اختلف النظر إلى النتيجة التى أسفرت عنها المقارنات الطويلة بين مجموعة شكسبير وغيرها، ثم بين الروايات والقصائد التى احتوتها مجموعة شكسبير، ولكن الرأى الغالب عند جلة النقاد أن شكسبير لم يكتب كل ما فى المجموعة من نظم ونثر، وأن هناك أقلاماً شتى تنم عليها بعض الفصول أحياناً وبعض المناظر أحياناً أخرى.

فإذا صحت هذه الآراء فهى أدعى إلى الاستغراب من خفاء أمر المؤلفين المتسترين، ولا بد من سؤال يضاف إلى تلك الأسئلة وهو: لماذا يحتاج النبيل المتخفى إلى ترقيع كتابته بكلام أديب آخر دون طبقته فى الأدب وفى المنزلة الاجتماعية فضلاً عن اطلاعه على السر الذى يخفيه؟ ولماذا يستعير من المؤلفات المهجورة إذا كانت شهوة التأليف باعته الوحيد إلى الكتابة؟

إذا كان شكسبير هو صاحب التأليف وهو المسئول عن إعداد المسرحيات للتمثيل فقد تزول الغرابة بإحالتها إلى ضرورات المسرح أو إلى طبع المجموعة بعد وفاته، ولكنها تلجئنا إلى تفسيرات غير مفهومة إذا كانت المجموعة من عمل نبيل يهوى الكتابة ولا يحترف التمثيل.

وصفوة القول فى بحث خصائص الكتابة أن المقارنة بين أسلوب شكسبير وأسلوبى باكون ومارلو لم تنته إلى بينة معقولة تززع

أصالة شكسبير، ولم تجر مقارنة تذكر بين أسلوبه وأسلوبى كروتلاند وأكسفورد، لأن المحفوظ من آثارهما لا يكفى لترجيح رأى من الآراء.

ولقد أشرنا من قبل إلى النزعة الاجتماعية أو السياسية التى قيل إنها أوجت بإنكار شكسبير وإسناد أعماله إلى أولئك النبلاء، فلا يفوتنا أن نشير هنا إلى الموافقات الأدبية التى تكمن وراء كل نوع من أنواع القرائن والشبهات يستدلون به على ظنون المتشككين فى أصالة شكسبير، فإنها أحق بالملاحظة فى دراستنا الأدبية وأوضح منها علاقة بأسبابها، فقد كان الاستدلال برموز الجفر والحروف يشيع فى الزمن الذى راجت فيه قصص الشرطة وأسرار المغامرات، وكان الاستدلال بخصائص الأساليب يشيع فى إبان الإقبال على تحليل الشخصيات واستخراج طبيعة الكاتب من الكتابة على يدن القائلين بأن الأسلوب هو الرجل، أو على يدن الرواد الأوائل من النقاد النفسانيين.

كانت الرموز وحروف الجفر قراءة المتطلعين من عشاق الألغاز والأفانين، وكانت خصائص الأسلوب قراءة الأدباء المتخصصين، وبقيت بعد هذين النوعين قراءة أخرى أعم منهما وأدى إلى بديهية الإنسان من القراءات الخاصة أو قراءات المتخصصين، لأنها تتناول طبيعة العقل الإنسانى التى تعنى الإنسان فى كل أمة وفى كل زمان.

* * *

أهم وأجدى من الرموز ومن خصائص الأساليب، نظرات الباحثين فى طبائع الفكر وعادات العقل الإنسانى وخوارقه، وفيما يُلهمه بالفطرة وما يكسبه بالتعليم والخبرة، وفى معنى العبقرية ومعنى النبوغ ومعنى الإدراك اللدنى والإدراك بالوسيلة والدراسة، وهذا هو مجال البحث الذى طوى كل بحث يتناول الشك فى أصالة شكسبير؛ لأنه يقيم هذا الشك على مقدار المعلومات التى لا بد منها لمن يبدع المؤلفات المنسوبة إليه.

شكسبير لم تنتهياً له المعلومات الضرورية لتأليفها. شكسبير لا حاجة به إلى معلومات غير معلوماته التى استفادها من دراسته وتجارب حياته، واستلهمها من فطنته ووحى عبقريته. وبين هذين القطبين المتقابلين تموج الأقوال والآراء وتتدافع الوقائع والنظريات بين المنكرين والمعجبين، وتعمل العاطفة عملها مع ما يعمله الدرس ويعمله الخيال، فيذهب الخلف كل مذهب، ويخيل إلينا أن القطبيين يستديران من آونة إلى أخرى، فلا ندرى أين يكون المنكرون وأين يكون خصومهم المعجبون.

فالمنكرون لشكسبير يبالغون جهد المبالغة فى تعظيم الأعمال المنسوبة إلى شكسبير، ليقولوا إنها أعظم من طوقه وأبعد من ذرعه، وأحجى أن تكون من عمل غيره.

والمعجبون بشكسبير يبالغون من الجانب الآخر فى إحصاء العيوب والتنبيه إلى مواطن الجهل والخطأ، ليقولوا إن هذه المؤلفات

لا تأتي ممن تعلم تعليم باكون وروتلاند وأكسفورد، وتعليم مارلو وشعراء عصره المثقفين.

وعلى هذه القضية - قضية المعلومات - تدور رحى المعركة التي هدأت من جانب المختلفين على الرموز ومن جانب الباحثين في خصائص الأساليب، ولكنها في هذا الجانب لا تزال إلى السنة الأخيرة تتلقى المدد من حين إلى حين، وفيما يلي خلاصة تلمم من شعت هذه المعركة ما يستطاع الإلمام به في حيز هذه الصفحات:

يقول المنكرون إن المؤلفات المنسوبة إلى شكسبير تدل:

أولاً: على السياحة الواسعة في القارة الأوروبية.

ثانياً: على العلم بالبحر وحوادث السفن وفن الملاحة.

ثالثاً: على فهم دراسات دقيقة كدراسة القانون وأحوال المقاضاة

مع قلة الإشارة إلى الصناعات التي زاولها شكسبير وأولها صناعة التمثيل.

رابعاً: على شواغل من الرياضة العالية وهو الفروسية يشغل بها العلية ولا يشغل بها أمثال شكسبير.

خامساً: على نظرات رفيعة في المسائل الكبرى ومعرفته باللغات الحديثة والقديمة لم يتبين من ترجمة شكسبير أنها تيسرت له بالدراسة أو الاطلاع.

وزبدة أقوالهم في هذه الملاحظات على إجمالها أن علامة الصحة أن تكون الترجمة مفسرة للمؤلفات وأن تكون المؤلفات

مفسرة للترجمة، وهذه علامة لا نجدها إذا نسبنا المؤلفات إلى شاعر ستراتفورد، ولكننا نجدها وافية متواترة إذا نسبناها إلى غيره، وكل من المنكرين يرى أن هذا «الغير» لا يكون إلا النبيل الذى اختاره بين زمرة يشبهونه فى التربية والرياضة والسياحة وشواغل الحياة.

ويتبين منهج المنكرين عامة من الأسئلة التى تملئها المشكلة ويعتقدون أنهم أجابوا عنها وحلوا المشكلة بنسبة الروايات والقصائد إلى مؤلفهم المختار، وهذا نموذج من تلك الأسئلة يلقيها الكاتب الروسى بروفشيكوف Porohovshikov فى كتابه الذى سماه إماطة اللثام عن شكسبير Shakespeare Unmasked ونسب فيه المؤلفات إلى اللورد روتلاند، ثم يجيب عن كل منها إجابة واحدة لا تحتتمل قولين فى ظنه، ويبدو من وضع الأسئلة فيها أن الجواب محض قبل السؤال:

وهذه هى الأسئلة الهامة فى هذا الكتاب، ولها نظائرها من الأسئلة فى كتب المنكرين الآخرين، ممن لا ينسبون المؤلفات إلى لورد روتلاند وحده بين النبلاء.

يسأل الكاتب الروسى:

- ١ - كيف يمكن أن تنكشف الروايات عن طبقة من المعرفة تناصى أرفع قمة بلغتها الثقافة فى عصرها؟
- ٢ - ولماذا تغمر الروايات بالكلام على الرياضة ومصطلحات القانون؟

٣ - ولماذا تخلو الروايات - إلا فى الغادر - من صور المسرح إن كان مؤلفها شكسبير؟

٤ - وما سر هذا الولوج بالمناظر الإيطالية فى مدن معينة تقاد إليها الحوادث من أماكنها التى ذكرت فى مصادرها الأولى؟

٥ - ولماذا تتابعتم الملهيات السعيدة حول سنة ١٦٠٠م وتلتها الفواجع الأليمة بعد ذلك؟

٦ - ولماذا كان شكسبير الشاعر الوحيد الذى لم يكتب سطرًا واحدًا عند وفاة الملكة اليبابات؟

٧ - ولماذا لم يكتب شيئًا بعد سنة ١٦١٢م؟

ومحصل الأجوبة عن هذه الأسئلة جميعًا أن حياة روتلاند وموته يفسران لنا كل سؤال منها نحار فى جوابه إذا أصررنا على نسبة الروايات إلى شكسبير، ولكن الكاتب الروسى يزيد الحيرة فى الحقيقة حيرتين، إذ هو يناقض القائلين بموافقة الروايات لحياة باكون وموافقته لحياة أكسفورد، ولا اتفاق بينهم فيما عرضه من سؤال أو جواب.

وأول اعتراض يرد على الذهن المستقل - فضلا عن الذهن المتعصب لشكسبير - أن المنكرين تذكروا كل سؤال ونسوا سؤالاً

واحدًا هو أولى بالتقديم من كل ما سألوا عنه ، وكان عليهم أن يسألوا قبل ذلك: ما هو فضل العبقرية في حسابانهم؟ وأين مكان الملكات الممتازة إن أسقطوا من حسابانهم خوارق العادات وأجروا كل شيء في التأليف مجرى المعهود المقدر في عادات المعقول؟

ففى الروايات «معلومات» لا تستقى من ثقافة العصر كائنًا من كان مؤلفها وبالغًا ما بلغ من علوم عصره ومحصول جامعاته ، ولم يكن فى طاقة ذلك المؤلف أن يقسم عوارض علم النفس على حسب المرضى المصابين بانحراف العقل وانتكاس الخليقة ذلك التقسيم الدقيق الذى نقرأه اليوم فى أدوار هملت وتيمون الأثينى والملك لير ولادى مكبث وريتشارد الثالث وغيرهم من المرضى «النموذجيين» فى أوصاف علماء النفس المحدثين ، وما كان فى طاقة المؤلف أن يستبطن تلك العوارض والأعراض ويقسمها حسب أطوارها بما يستقيه من دروس جامعاته ومعاهده ، ما لم ندخل فى الحسابان فضل العبقرية وقدرتها على خوارق العادات فى وعى السرائر واستطلاع خبايا الضمائر وتصوير كل أولئك فى قالب شبيه بقالب الحياة.

على أن الغريب عندنا فى القرن الحاضر أو فى القرن التاسع عشر لم يكن غريبًا فى عصر شكسبير ، وهكذا كل عصر من عصور الانتقال والانقلاب له معارفه العامة التى يتبادلها الناس من المختصين وغير المختصين ومن المتفرغين لها وغير المتفرغين ، فليس من اللازم أن نلجأ إلى فرض العبقرية لنفهم قدرة شكسبير على العلم بمصطلحات

الرياضة والملاحة ومراسم القانون، لأن رياضة الفروسية كانت خبيراً مشاعاً في عصر اليصابات، وكان قيام ملكة على العرش حافزاً قوياً بين النبلاء للتنافس في النخوة والبطولة وبراعة الفروسية والصيد والسابقة، ومن لم تكن له ثروة النبيل فلا حجاب بينه وبين ساحات الطرد والصيد وحلبات المبارزة والسباق، ومما اشتهر عن شكسبير أنه هجر بلده هرباً من تهمة التعرض للصيد في بعض ساحاته الممنوعة، وأنه كان على صلة حميمة بكثير من فرسان عصره، وأنه كان لعرفته بالخيل تعهد إليه خيول السادة المتردين على المسارح قبل أن يشتغل بالتمثيل، وما كان ليفوته وهو يحرس تلك الخيول أن يسمع من أخبارها ومزاياها ما يغنيه في كتابة ما كتبه عن ألعاب الفروسية وأحاديث الفرسان.

أما الملاحة فقد كان حديثها على كل لسان في عصر المغامرات البحرية والرحلات إلى الأقطار المعلومه أو المجهولة، ولم يكن ناد من أندية العامة عند فرصة لندن يخلو من عشرات الملاحين من شتى الأمم يتحدثون بما شهدوه وما سمعوه وفيه ما يغنى السامع عن ركوب البحار لوصف ما وصفه الشاعر في بعض رواياته، وهو مكتوب لأناس يسمعونه ويسمعون أمثاله في غير المسارح ومشاهد التمثيل، وقد كتب الشاعر سونى Southey سيرة نلسون، فقال قراؤه من جنود البحر إنه كان يتسلل بين أدوات السفن كأنه قطة السفينة المنذورة أو كلبها المنذور، وسونى لا يسمو في عبقريته

إلى أوج شكسبير، وسفن القرن السادس عشر أو السابع عشر لا تحتوى من الدقائق ما احتوته السفن فى عصر نلسون، ولا تحتاج مصطلحاتها إلى علم وافر بالملاحة كعلم الملاحة الحديث، وليس لنا بعد كل تقدير أن ننفى خروج شكسبير من وطنه ونقطع باستحالة وصف البحر فى رواياته على المشاهدة والتجربة وممارسة الملاحة فى بعض الرحلات، فإن فى سيرته - كما تقدم - فترة مجهولة بعد سنة ١٥٨٤م تزيد على ست سنوات لا يجوز البت فى خبر من أخبار حياته ولا فى مزاوله من شتى مزاولاته ما لم تنكشف لنا أخبارها على وجه اليقين، فإن لم يكن قد ثبت أنه قضى هذه الفترة فى رحلات البحر ومشاهدات السياحة فلم يثبت كذلك أنه بقى خلالها فى مكان معلوم لم يفارقه إلى مكان قريب أو بعيد.

ومصطلحات القانون فى الروايات لا تزيد على القسط الذى يلتقطه الذهن اليقظ من معاملاته أو من محادثاته مع الفقهاء والمسجلين، وكانت لشكسبير معهم - ولا ريب - أحاديث فى بلده حيث يختلف القرويون إلى المسجلين وكتاب العقود شهوداً أو موقعين أو أصحاب شأن فى ورقة من أوراق التوثيق، وكانت له عقود ومشاركات كما كانت له أسمار يستمع فيها لفقهاء القانون وأصحاب القضايا ورواد المحاكم والدواوين، وفى استطاعة مثله - ولو لم يقصد - أن يتلقف من معارف القانون ما يعينه على مساجلاته القانونية، فإذا قصد أن يحيط ببغيته منها فلا يعيبه أن يدرك ما يبتغيه.

ولقد قيل إن كثرة الكلام على الصناعات ما عدا الصناعة التي مارسها الشاعر - وهي التمثيل - دليل على أن الكاتب من غير الممثلين، والأحجى لا يكتب رواياته ليمثل الممثلين ولا يعرض على النظارة أدوات فنه ومصطلحات عمله، وإنما يكتب ليمثل الصناعات والصناع جميعاً ما عدا الصناعة التي يرونها منه حين يرونها على المسرح في تلك الأدوار، وليس الإكثار من ذكر المسرح والتمثيل دليلاً على خبرة المؤلف بالشئون المسرحية أو قيامه بتمثيل الأدوار أو توجيهه للممثلين، وإنما يدل على ذلك وضعه للرواية على النحو الذي يهيئها للغرض ويهيئ للممثلين فيها أداء أدوارهم وإلقاء أقوالهم على أيسر سبيل، وهذه هي القدرة التي أحسها أستاذ المسرح الشكسبيرى فى زمانه سير هنرى إيرفنج الذى مثل أشهر الأدوار فى روايات شكسبير، فإنه يقول إن هذه الأدوار لا يتأتى لأحد لم يشتغل بالتمثيل أن يكتبها هذه الكتابة وينسقها هذا التنسيق.

* * *

أما الثقافة التي تنال بالتعليم فى معاهده ولا يتلقاها طالبها - فى رأى المنكرين - من أفواه الناس أو من معلومات العصر المتداولة بين عامة أبنائه، فليست هى بالكثيرة فى مجموعة شكسبير، ولكنهم يستكثرونها عليه فيما عرف من تعليمه المدرسى بالقراءة التي ولد فيها، وأخص ما يذكرونه من هذه العلوم دروس اللغتين

القديمتين اللاتينية والإغريقية ودروس اللغات الحديثة، ولا بد أن يكون مؤلف المجموعة قد أضاف فيها شيئاً من الفرنسية والإسبانية والإيطالية.

ولكننا نرجع إلى الروايات والقصائد فلا نرى فيها جزءاً كبيراً أو صغيراً يحتاج إلى معرفة باللغات القديمة أو الحديثة أو في من النصيب الذي ناله شكسبير ومن نشأوا مثل نشأته في قرى الريف. فقد كانت المدارس المعروفة باسم مدارس الأجرومية تُعلم تلاميذها اللاتينية وتحرص على تزويدهم بنصيب حسن منها لأنها كانت لغة الدين في الكنائس الغربية خلافاً للكنائس الشرقية التي كانت تقرأ الصلوات بالإغريقية، ولهذا كانت عنايتهم باللاتينية أكبر من عنايتهم بالإغريقية، وظل معلموها من رجال الدين يتشددون في تعليمها إلى ما بعد الثورة البروتستانتية بزم طويل. وقد قال معاصر شكسبير الشاعر الأديب المثقف بن جونسون Ben Johnson إن لغته اللاتينية كانت قليلة ولغته الإغريقية أقل منها ولكنه كان موفور الحظ من لغة الطبيعة، وهذه شهادة يؤيدها نظام التعليم كله في عصر شكسبير، إذ كان تعليم اللاتينية أرقى من تعليم الإغريقية في سلك التلمذة الأولى، وكان التوسع في الإغريقية مطلباً يتوفر عليه طالبه بعد الانتقال من هذه التلمذة إلى ما يتبعها من مراحل التعليم.

وقد عرف بن جونسون معاصره شكسبير معرفة زملاء ولم يسرف في الثناء عليه، بل لعله كان إلى القصد أدنى منه إلى السرف

حين وصف علمه باللغتين اللاتينية والإغريقية، أو لعله كان يقيس علم شكسبير بهما إلى علمه وعلم أقرانه من أساتذة اللغتين، ولكن توماس فولر Fuller الشاعر الذي كان يعاصر شكسبير (١٦٠٨ - ١٦٦١م) يقول في تحيته له: «إنني لا أنحل الطبيعة كل فضلك، لأن الشاعر يصنع كما يولد، وهكذا كنت أنت أيها الكريم شكسبير». وممن عاصروا شكسبير من الشعراء الأدباء ريتشارد بارنفلد Barnfield (١٥٧٤ - ١٦٢٧م) الذي كان يعجب به ويحكيه ويقول عنه - وإن لم يذكر علمه باللغات - إنه سيخلد كما خلد شعراء اللاتين.

ويجوز مع هذا أن يكون شكسبير أجهل باللاتينية مما وصفه بن جونسون أو وصفه المنكرون، ثم لا يجهل القدر الذي يكفيه للرجوع إلى مصادرها التي لم تنقل إلى الإنجليزية، وهي قليلة لا تستعصى على قارئ متوسط الذكاء قد درس من مبادئها ما درسه شكسبير. ومشكلة اللغات الحديثة أيسر من مشكلة اللغتين القديمتين، لأن الكلمات الفرنسية أو الإسبانية أو الإيطالية التي جاءت عرضاً على ألسنة بعض شخوصه لا تزيد على ما يعلمه عامة أبناء عصره من تلك اللغات، وقد كانت رحلاتهم في السلم والحرب إلى فرنسا وإيطاليا تتصل في عهد الرحلات المتلاحقة بين بلاد القارة الغربية، وكان زوار إنجلترا من الفرنسيين والإسبانيين يتفاهمون على نحو من التفاهم بغير حاجة إلى الترجمة في محادثاتهم

اليومية مع أبناء البلاد، وكانت إيطاليا فى عصر النهضة قبلة المهذبين والظرفاء ينقلون عنها الأزياء، ويأخذون عنها الصحاف المختارة من الطعام ويتشبهون بساتها فى ألعاب البيوت وملاهى السهرات، ويذكرون أوراق اللعب بأسمائها الإيطالية التى بقى بعضها فى اللغة الإنجليزية إلى الآن.

فإذا كان فى أمرها فى اللغات الحديثة وجه للغرابة، فالغريب فى هذا الأمر أن يجهلها شكسبير ولا يعرف منها ذلك القدر الذى لا يستعصى على أحد يريده فى وقت من الأوقات.

ويبدو أن المناظرة بين الفريقين عن أصالة شكسبير قد تحولت إلى سباق فى البحث عن المحاسن والأخطاء ولكن على غير المنظور من المنكرين ومن المتشيعين، لأن المنكرين هم الذين يتحرون مواطن الإتقان والدراسة الرفيعة ليقولوا إن المنظوم والمنثور فى المجموعة من عمل مؤلف غير شكسبير، ويقابلهم من الطرف الآخر من يخالفونهم من المتشيعين المعجبين أو المتعصبين، فيمعنون فى تحرى مواطن الخطأ والزلل ليقولوا إن المجموعة لا تكون من عمل مؤلف كأصحاب الدراسات الرفيعة الذين ترددت أسماؤهم فى أقوال مخالفيهم، إذ هى أخطاء بينة لا تخفى على المتعلم الذى أصاب من العلم الرفيع ما أصابه أمثال أولئك الأقطاب.

ولهذا كشف المعجبون بالشاعر ما لم يكشفه منكروه من أخطائه وعيوبه، ولم يتركوا عملاً واحداً من منظومه أو منشوره لم يأخذوا عليه خطأً في التاريخ أو فى الجغرافية أو فى العلم بأحوال الأمم وطبائع الأمور.

ونذكر فى أمثلة ذلك إطلاق المدافع فى عهد هملت، أى عهد الغارة الدنماركية على إنجلترا، مع أن الأسلحة النارية لم تستخدم فى أوروبا قبل القرن الرابع عشر. ومن أمثلة هذه الأخطاء كلامه عن جامعة وتنبرج Wittenberg فى ذلك العهد مع أنها تأسست فى مفتتح القرن السادس عشر، وكلامه عن الحرس السويسرى فى العهد نفسه وهو نظام لم يعرف فى الشمال، وعن شواطئ بوهيمية فى رواية «نادرة الشتاء» وعن الساعة الدقاقة فى عهد يوليوس قيصر، وعن الأرياء والنباتات والأحياء فى غير أماكنها من القارات.

هذه المآخذ وعشرات من أمثالها قد جمعت من كل فطنة ولكنها لم تثبت شيئاً مما أريد إثباته من أصالة شكسبير، لأنها نوقشت وغربلت فصارت إلى نتيجة من ثلاث ليس منها ما ينتفع به فى هذا المبحث خاصة، وإن كان فيها منتفع للمبحث فى تاريخ الأدب وفى خصائص العبقريّة وأخطاء العلماء والأدباء.

فبعضها ليس فيه خطأ تاريخى ولا جغرافى وإنما الخطأ فيه من النقاد أنفسهم لأنهم نظروا إلى المواقع على ما كانت عليه فى أزمنتهم أو فى الماضى القريب ولم ينقبوا عن ماضيها المجهول.

فبوهيمية كانت فى القرن الثالث عشر تمتد من بحر أدريان إلى البحر البلطى ولم تكن خالية من الجداول والأقنية الصناعية، ولم تذكر فى موضعها على البحر لأول مرة فى مجموعة شكسبير، بل ذكرها جرين على هذا الموضع فى روايته دوراستس وفونيه Dorastus and Fawnia قبل تأليف رواية شكسبير، وقد كان جرين أستاذاً فى الأدب من الجامعتين.

وبعض تلك المآخذ خطأ ولكنه لا يجهل أو لا يجهله كاتب الروايات كائناً من كان، ومن قبيله ذكر المدافع فى عهد لم تعرفها، لأن اختراع البارود مذكور فى رواية هنرى الرابع التى لم تسلم من مآخذ غير هذا المآخذ، فليس ذكر المدفع قبل عصره جهلاً من المؤلف ولكنه جرى فيه على عادة الفنانين من المصورين والمسرحيين الذين كانوا فى عصر النهضة يستبيحون المخالفات التاريخية فى سبيل تحليلية الصورة أو بلاغ التأثير فى المناظر المسرحية.

وسواء صدرت هذه الأخطاء عن جهل بحقيقتها أو عن ترخص من الكاتب فى سبيل الأداء الفنى لقد كانت مما يؤخذ على المؤلفين من كبار العلماء وفى مقدمتهم باكون فى كتبه التى تنسب إليه نسبة لا اختلاف عليها، فقد اضطر رينولد مقدم مقالاته إلى التنبيه إلى أخطائه، فقال إنه لم يكن يعنى بصحة التفصيلات فى كتابته، ومما حسب عليه أنه أشار إلى ملابس آراس Arras على لسان ثمستوكليس وهو يخاطب ملك الفرس، وله فى الأنسجة الفارسية والشرقية مندوحة عن ذكر آراس.

ومن العلماء الذين حسبت عليهم أخطاء كهذه شابمان Chapman مترجم هومر إلى اللغة الإنجليزية، فإنه يذكر المسدسات في عصر البطالسة بين مناظر روايته «سائل الإسكندرية الضرير» ويجعل أبطال الرواية يقسمون بالأيمان المسيحية.

وقد حُسِبَ على الشاعر سكوت خطأ من أخطاء الجغرافيا في وطنه أغرب من خطأ بوهيمية المحسوب على شكسبير أو جرين، لأنه جعل الشمس في إحدى رواياته Antiquary تغرب على صفحة البحر المحيط فوق شواطئ أسكوتلاندا الشرقية، وأخطاء سكوت التاريخية لا تقل عن أخطائه الجغرافية، ومنها أنه تحدث في رواية إيفانهو Ivanhoe عن عصر ريتشارد الأول، فأجرى الأحاديث على نهج الفروسية الذي لم يعرف قبل عصر إدوارد الثالث، ومنها أنه تحدث في رواية كنلورث Kenilworth عن الرحلات إلى فرجينيا قبل أن تؤسس هذه المدينة.

وكان الشاعر بروننج Browning عليمًا بالفن الإيطالي، أقام في مدينة فلورنسا اثنتى عشرة سنة لدراسته، ولكنه يقول عن مساشيو Masaccio إنه يقتدى بليبي Lippi مع أن الأول هو السابق في زمانه^(١).

(١) يراجع كتاب شكسبير في الحق والرواية لمؤلفه جون سمارت:

Sh. Truth and Tradition by smart.

فلا فائدة من الاعتماد على الأخطاء، لإثبات علم المؤلف أو جهله»، ولا فائدة كذلك من الاعتماد على التشابه بين العبارات، فإنه قد تتشابه في العصر بغير سرقة ولا انتحال، وقد تدل على أن باكون هو الذى اقتبس من شكسبير كما يرى الأستاذ جيرالد ماسى Massay الذى يعتقد أن أفكار شكسبير مبنوثة فى كتابات باكون، ومهما يكن من تشابه العبارات فليست معجزة الرواية المسرحية فى الكلمات بل خلق الشخوص التى تتحدث بتلك الكلمات، وقد يحفظ الإنسان كلمات المشهورين وغير المشهورين الذين يعيشون معه فى عصره ولا يستطيع مع هذا أن يجمع منهم رواية أو يصنع منهم شخصية يضعها فى موضعها من الرواية، فإذا ثبت التشابه بين مئات العبارات فى كلام باكون وكلام شكسبير فالمشكلة باقية بحذافيرها بين ثبوت هذا التشابه الكثير، وتلك المشكلة هى إثبات القدرة على خلق الشخصية ورسم الوحدة فى موضوع الرواية، وهذا دون غيره هو فن الرواية المسرحية وعمل الشاعر الخلاق المقتدر على التخيل والابتداع^(١).

ولا يعد الخلاف على أصالة شكسبير منتهياً فى الآونة الحاضرة، فإنه يتجدد بين حين وحين حول فرض حديث أو حول فروضه السابقة، ولا اختلاف بين أدلته فى الحالتين، وليس فى

(١) كتاب بين الكتب والناس للمؤلف.

كل ما قيل من جانب المنكرين أو المتشيعين ما يفيد الحكم على أصالة شكسبير كما فهمها التابعون له في جيله من أبناء القرن السابع عشر، ولنا أن نفهم الآن كما فهموا أن شكسبير لم يكتب كل حرف في مجموعته وأنها تحتوى كلاما لغيره، خطأ من جامعى أعماله ورواياته أو تعمدًا من شكسبير عند تمثيل بعض الروايات التي تعرض عليه لتنقيحها وتهيئة بعض المواقف فيها للعرض من جديد، ولا تزال هذه الإضافات مفروزة على اختلاف بين المجتهدين في استنباط الدلائل عليها، ولكنها قد تحذف من المجموعة ويبقى للمجموعة بعد حذفها هيكلها الذى قامت به معجزة الشاعر، ويبقى فى هذا الهيكل موضع الإعجاز إلى جانب مواضع الزلل والإسفاف التى لا يستغرب اجتماعها فى عمل شكسبير ولا فى عمل غيره من العباقرة المعدودين، ولكن التفاوت هنا كالتفاوت بين أعضاء البيئة الواحدة لا فرق بين محاسنها ومعايبها فى الانتماء إليه، وقد تساعد المحاسن والمعايب معاً على التمييز بين الصحيح والمنحول من مجموعة الروايات والقصائد، حيثما أمكن تقرير «الطابع الشخصى» الغالب على تفكيره وعاداته فى التعبير والأداء.
